قدم الملاك

كانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ مَمْلَكَةٌ تُسَمَّى مَمْلَكَةَ الضِّخَامِ ، وَكانَ أَهْلُهَا ضِخَامَ الأَجْسَامِ . وَكانَ مَلِكُهَا أَضْخَمَ أَهلِ زمانِهِ . وَكانَ مِنْ أَكْبَرِ مَفَاخِرِهِ أَنَّ لَهُ أَضْخَمَ قَدَمَيْنِ فِي المَمْلَكَةِ . وَكانَتِ المَلِكَةُ تُعتَبَرُ أَجمَلَ امرَأَةٍ فِي زَمَانِهَا لِأَنَّ حِذَاءَهَا كانَ كَبِيرًا كَقَارِبِ الصَّيْدِ . وَكانَ لهما ستَّةُ أَولادٍ كلُّهُمْ عَلَى هذا الْجَمَالِ النادِرِ ، وَرِثُوا كِبَرَ أَقدامِهِمْ مِن أَجْيَالٍ بَعيدَةٍ . وَلَكِنْ مَا كانَ أَشَدَّ حُزْنَهُمَا حِينَ وُلِدَ لَهُمَا الطِّفْلُ السابعُ ، وَلَهُ قَدَمَانِ صَغِيرَانِ كَأَقْدَامِ المَلائِكَةِ . وَلَمْ يُطِيقَا احتمالَ هذا العارِ ، فقرَّ قرارُ المَلِكِ عَلَى إِرْسَالِ المَوْلُودِ إِلَى أَحَدِ الرُّعَاةِ يَتَرَبَّى فِي بَيْتِهِ ، وَيَنْشَأُ رَاعِيًا لا أَمِيرًا يَكُونُ عارًا وَسُبَّةً لِلْبَيْتِ المالِكِ . وَتَسَرَّبَتْ أَخْبَارُ المَوْلُودِ إِلَى الرُّعاةِ أَنْفُسِهِمْ ، فاحْتَقَرُوهُ وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ « قَدَمِ المَلاكِ . » وَلَمَّا كَبِرَ صَارَ يَخْرُجُ مَعَ الْغَنَمِ يَرْعاهَا ، وكانَ يَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ والْحُزْنِ الْعَمِيقِ مِنْ شِدَّةِ ازْدِرَاءِ النَّاسِ لَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَدِيقٌ أَوْ رَفِيقٌ .

وذَاتَ يَوْمٍ ، بَيْنَمَا كَانَ رَاقِدًا يَسْتَرِيحُ فِي ظِلِّ الصَّخْرِ وَالْأَعْشَابِ ، إِذْ رَأَى صَقرًا يُطَارِدُ عُصفُورًا ، وَجَاءَهُ الْعصـــفُورُ كَأَنَّمَا يَطْلُبُ حِمَايَتَهُ ، فَغَطَّاهُ بِقَلَنْسُوَتِهِ وَطَارَدَ الصَّقْرَ فَقَفَلَ رَاجِعًا . ثُمَّ رَفَعَ الْقَلَنْسُوَةَ ، وَقَالَ لِلعصْفُورِ : « لَقَدْ رَحَلَ الصَّقْرُ ، فَهَيَّا اذْهَبْ وَلاَ تَخَفْ . » وَلَـكِنَّهُ وَجَدَ الْعُصفُورَ قَدْ تَحوَّلَ إِلَى قَزْمٍ عَجُوزٍ فِي حُـلَّةٍ لَطِيفَةٍ سَمْرَاءَ . فَدُهِشَ لِهذَا الْمَنْظَرِ الْعَجِيبِ ، وَلَمْ يَقْوَ عَلَى الْـكَلاَمِ مَذْهُولاً ، وَلَـكِنَّ الْقَزْمَ خاطَبَهُ قائلا : « شُـكْرًا لَكَ عَلَى هـذا الْمَعْرُوفِ ، وَسَتَجِدُنِي طَوْعَ أَمْرِكَ كُلَّمَا احْتَجْتَ لِمَعُونَتِي ، وَاسْمِي الْعُصْفُورُ الطَّيِّبُ . » ثُمَّ هَمَّ طَائِرًا ، فَنَادَاهُ « قَدَمُ المَلاكِ » ، وَقَالَ لَهُ : « إِنِّي وَحِيـدٌ حَزِينٌ ، وَالْـكُلُّ يَأْنَفُ مِنَ اللَّعِبِ مَعِي ، لِأَنَّ قَدَمَيَّ صَغِيرَتَانِ . » فقالَ الْعصْفُورُ : « إِذن تَعَالَ ، وَالْعبْ مَعنا فَنحْنُ أَسْعَدُ خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تَهُمُّنَا أَقْدَامُ الْغَيْرِ ، وَلَـكِنْ يَهُمُّنَا مِنْكَ أَمرَانِ لاَ ثَالِثَ لَهُمَا : أَنْ تَفْعَلَ كَمَا نَفْعَلُ ، وَأَنْ لاَ تَنْقُلَ لِلْغَيْرِ مَا تَرَى أَوْ تَسْمَعُ بَيْنَنَا . » فقَالَ « قَدَمُ المَلاكِ » : « أَعِدُكَ بذلك ، بَلْ بِأَكْثَرَ إِذَا شِئْتَ . » فَأَمْسَكَ الْعصفُورُ الطَّيِّبُ بِيَدِهِ ، وَقَادَهُ مِنَ الْمَرْعَى إِلَى الْغَابَةِ فِي طَرِيقٍ مُغَطًّى بِالْحَشَائِشِ الْخَضْرَاءِ ، عَلَى جَانِبَيْهِ أَشْجَارٌ عَالِيَةٌ تَتَدَلَّى أَغْصَانُهَا الخضراءُ كَجَدَائِلِ الْعَذَارَى . وَسَارَا حَتَّى سَمِعَا صَوْتًا مُوسِيقِيًّا عَذْبًا آتِيًا مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَخَذَا يَقْتَرِبَانِ مِنْهُ إِلَى أَنْ وَصَلاَ إِلَى وَادٍ فَسِيحٍ مَمْلُوءٍ بِالأَزْهَارِ وَالرِّيَاضِ ، وَقَدْ أَشْرَقَ

عليه القمرُ بنورِهِ الأبيضِ الفضيِّ البهيج . وهُناكَ وجدَا عددًا كبيرًا من الأقزامِ الصِّغارِ في ملابسَ جميلةٍ سمراءَ وخضراءَ يرقصونَ حولَ بركةٍ من الماءِ الصافي كأنَّهُ البلّورُ في بريقِهِ وبهائِهِ، ورأيا في ظلالِ أشجارِ الوردِ العاليةِ بجانبِ البركةِ مناضدَ واطئةً ، يجلسُ حولَها جماعاتُ الأقزامِ يشربونَ من أقداحٍ خشبيةٍ لبنًا خالصًا سائغًا للشاربينَ ، ويأكلونَ من أطباقٍ مُلئتْ عسلاً مُصفًّى . وحالما وصلا إلى أقربِ مِنضدةٍ قالَ العصفورُ الطيِّبُ لرفيقِهِ : « اشربْ من هذا اللبنِ . » وما كادَ يتذوَّقُهُ (قدمُ الملاكِ) حتى شعرَ أنَّ متاعبَهُ قد زالتْ ، وأنَّ آلامَ الوحدةِ قد رحلتْ عنه ، وصاحَ الأقزامُ جميعًا : « هيَّا إلى الرقصِ معنا . » وأخذَ (قدمُ الملاكِ) يرقصُ ويمرحُ ، ويشربُ اللبنَ ، ويأكلُ العسلَ ، حتى غابَ القمرُ ، فعادَ إلى فراشِهِ في كوخِ الراعي .

وفي صباحِ اليومِ التالي قامَ كعادتِهِ ، وخرجَ معَ قطيعِهِ يرعاهُ ، ولمْ يشعرْ بأيِّ تعبٍ أو غمٍّ . وفي كلِّ ليلةٍ كانَ يأتي العصفورُ الطيِّبُ بعدَ أنْ ينامَ الراعي ، ويصطحبُ « قدمَ الملاكِ » ليرقصَ في الغابةِ ، ويشربَ اللبنَ ويأكلَ العسلَ إلى الصباحِ . واستمرَّ كذلكَ طولَ أيامِ الصيفِ ، وهوَ أسعدُ ما يكونُ بالاً . والعجيبُ في كلِّ هذا أنَّهُ لمْ يشعرْ قطُّ بالتعبِ أو الكسلِ ، كما يحصلُ عادةً للذينَ يصرفونَ ليلَهُمْ في الرقصِ والسهرِ . ولمْ يعرفِ السرَّ في ذلكَ ، حتى كانتْ ليلةٌ من الليالي ذهبَ فيها كعادتِهِ معَ العصفورِ الطيِّبِ إلى وادي الرياحينِ ، وكانَ القمرُ في أعلى بهائِهِ وأصواتُ الموسيقى تملأُ الجوَّ حبورًا ، والأقزامُ يرقصونَ ويمرحونَ . وكانَ كلُّ شيءٍ يدعوهُ للرقصِ والمرحِ . فنظرَ إلى أقداحِ اللبنِ ، وقالَ : « لا داعيَ للشربِ ، فأنا ريّانُ ، ولا ينبغي أنْ أضيِّعَ الوقتَ في الشربِ أو الأكلِ . » وأقبلَ على الرقصِ ، ولكنَّهُ شعرَ بالتعبِ والإعياءِ ، ولمْ يقوَ على الاستمرارِ ، وأصابَهُ دوارٌ ، فهرولَ إلى شجرةٍ كبيرةٍ ، وجلسَ بجانبِها ليستريحَ ، وأغمضَ عينيهِ ، وغلبَهُ النعاسُ . ولمَّا أفاقَ وجدَ كلَّ شيءٍ هادئًا ، والراقصينَ يتفرَّقونَ حولَ البركةِ . وعلى بُعدِ خطواتٍ قليلةٍ منه رأى فتاتينِ من الأقزامِ في ملابسَ جميلةٍ خضراءَ تنظرانِ إليهِ ، وتتحدَّثانِ ، وسمعَ إحداهُما تقولُ : « إنَّهُ فتًى جميلٌ ، وإنَّ قدميْهِ لتشبهانِ في جمالِهِما ورقَّتِهِما قدمَي الأميرةِ زهرةَ قبلَ أنْ تغسلَهُما بماءِ المجرى المسحورِ . » فردَّتِ الأخرى قائلةً : « أسفي عليها ! إنَّها لتكادُ تموتُ حسرةً على كِبَرِ قدميْها ، وإنَّ أباها الملكَ يكادُ يجنُّ لما أصابَ قدميْها . ولا يوجدُ شيءٌ في الدُّنيا يعيدُ لقدميْها جمالَهُما غيرَ ماءِ

الْيَنْبُوعِ الذى يُغَذِّى بِرْكَتَنَا الْبِلَّوْرِيَّةَ الَّتِى نَرْقُصُ حَوْلَهَا . »

سَمِعَ « قَدَمُ الْمَلاَكِ » هٰذَا الحديثَ وعَجِبَ مِنْ أَنَّ الْأَمِيرَةَ وأَبَاهَا الْمَلِكَ فِى غَمٍّ وحُزْنٍ لِكِبَرِ قَدَمَيْهَا ، مَعَ أَنَّه مَنْبُوذٌ بَيْنَ الرُّعَاةِ لِصِغَرِ قدمَيْهِ . وقَامَ يَبْحَثُ عَنْ رَفِيقِهِ الْعُصْفُورِ الطَّيِّبِ ، فأَوْصَلَهُ الَى كُوخِ الرَّاعِى . ولٰكِنَّهُ لَمْ يَنَمْ نَوْمًا عَمِيقًا هَانِئًا كَعَادَتِهِ ، وقَامَ فِى الصَّبَاحِ وخَرَجَ مَعَ قَطِيعِهِ ، ولٰكِنَّهُ كَانَ تَعِبًا ، فَتَرَكَ الغَنَمَ وَنَامَ بِجَانِبِ شَجَرَةٍ ، فَجَاءَهُ الرَّاعِى ، ونَهَرَهُ وضَرَبَهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا . فَجَرَى « قَدَمُ الْمَلاَكِ » نَحْوَ الْغَابَةِ هَارِبًا ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ ، فَنَامَ تَحْتَهَا . ولَمَّا أَفَاقَ سَمِعَ قُمْرِيًّا عَلَى أَحَدِ الْأَغْصَانِ يَقُولُ : « مَنْ يَكُونُ هٰذَا الفَتَى الجَمِيلُ ؟ إِنَّ قدمَيْهِ تَدُلاَّنِ عَلَى أَنَّهُ غَرِيبٌ عَنْ هٰذِهِ البِلاَدِ . » فَرَدَّ قُمْرِيٌّ آخَرُ قَائِلاً : « إِنَّهُ لاَ شَكَّ أَنَّهُ مِنْ بِلاَدِ الْأَمِيرَةِ زهرةَ فَهُنَاكَ أَجْمَلُ أَقدَامٍ فِى الْعَالَمِ . » فأَجَابَ قُمْرِيٌّ ثالِثٌ قَائِلاً : « وكَيْفَ يَصِلُ إِلَى هُنَا ! فَهٰذَا أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ . » فَقَالَ القُمْرِيُّ الْأَوَّلُ : « الْأَمْرُ فِى غَايَةِ السُّهُولَةِ . فَفِى الْغَابَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِقَصْرِ الْمَلِكِ شَجَرَةٌ زَاحِفَةٌ تَنْمُو أَغْصَانُهَا ، وتَزْحَفُ عَلَى الْأَرْضِ ، وقد اسْتَمَرَّتْ تَزْحَفُ سِنِينَ عَدِيدَةً فِى الْوِدْيَانِ والمَرَاعِى وعَلَى قِمَمِ الجِبَالِ ، حَتَّى وَصَلَتْ الَى هٰذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِى نَقِفُ عَلَيْهَا ، ولاَ بُدَّ أَنَّ هٰذَا الفَتَى سَارَ فِى هٰذَا الطَّرِيقِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى هُنَا . »

دُهِشَ « قَدَمُ الْمَلاَكِ » مِنْ هٰذَا الْحَدِيثِ الْغَرِيبِ ، وقَالَ فِى نَفْسِهِ : « يَجِبُ أَنْ أَتَّبِعَ هٰذَا الطَّرِيقَ ، فَرُبَّمَا وَصَلْتُ إِلَى قَصْرِ الْأَمِيرَةِ زَهْرَةَ . » وسَارَ يَقْطَعُ الْوِدْيَانَ ويَتَسَلَّقُ الجِبَالَ مَعَ الْأَغْصَانِ الزَّاحِفَةِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ ، فَدَخَلَهَا ، ورَأَى بُحَيْرَةً بَيْضَاءَ تَجْرِى وتَقْفِزُ بَيْنَ الأَشْجَارِ ، وَسَمِعَ صَوْتًا حَزِينًا يُنَادِيهَا ، وَيَقُولُ : « تَعَالَىْ يَا بُحَيْرَتِى المحبوبةَ والْعَبِى مَعِى هُنَا ، فَقَدَمَاىَ ثَقِيلَتَانِ ، وَلاَ قُدْرَةَ لِى عَلَى الْجَرْىِ وَالقَفْزِ الآنَ . فَنَظَرَ نَحْوَ الصَّوْتِ ، فَرَأَى فَتَاةً بَارِعَةَ الْجَمَالِ فِى لِبَاسٍ نَاصِعِ البَيَاضِ ، تُحَلِّى شَعَرَهَا الذَّهَبِىَّ بِعِقْدٍ مِنَ الْوَرْدِ الأَحْمَرِ الجميلِ . وَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهَا الأميرةُ زَهرَةُ عَيْنُهَا . فَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ ، وَقَالَ : « يَا سُمُوَّ الأميرةِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ بِمَا أَصَابَ قدمَيْكِ من الضَّخَامَةِ وَالتَّشْوِيهِ ، وَإِنِّى أَعْرِفُ فِى بِلاَدِى يَنْبُوعًا من الماءِ لو وَضَعْتِهِمَا فيه لَعَادَا صغيرَتَيْنِ دقيقَتَيْنِ أَحْسَنَ مِمَّا كانتَا . » ففَرِحَتِ الأميرةُ بِهذا الحديثِ وَقَامَتْ فِى الحالِ مَعَ جَوَارِيهَا السِّتِّ . وقدَّمَتْ « قَدَمَ الْمَلاَكِ » إِلَى أَبِيهَا الْمَلِكِ ، وَوَافَقَ عَلَى رَحِيلِهَا مَعَهُ لِلاغْتِسَالِ بِمَاءِ ذٰلِكَ الْيَنْبُوعِ الغَرِيبِ . وَسَارَ الجميعُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْيَنْبُوعِ . وَهُنَاكَ خَلَعَتِ الأميرةُ حِذَاءَهَا وَجَوَارِبَهَا ، وَمَا كَادَتْ تَلْمِسُ قدمَاهَا الماءَ حَتَّى أَخَذَتَا تَصْغُرَانِ وَتَصْغُرَانِ حَتَّى صَارَتَا

كما كانتا دِقَّةً وجَمالاً . وعَلَتْ صَيْحاتُ الفَرَحِ والسُّرُورِ من الأميرةِ وجَوارِيها . وأقبلَتْ إحْداهُنَّ تُجَفِّفُ قَدَمَيْ سَيِّدَتِها . وهُنا انْتَشَرَ صَوْتُ المُوسِيقَى فى الوادِى ، فكانَ بَشِيرًا باجْتِماعِ الأقْزامِ للرَّقْصِ والمَرَحِ . فقامَ « قَدَمُ المَلاكِ » وقادَ الأميرةَ زَهرةَ وجَوارِيَها إلَى البِرْكةِ البِلَّوْرِيَّةِ . فرَحَّبَ بهنَّ العُصْفُورُ الطَّيِّبُ ، وقدَّمَ للجميعِ اللَّبَنَ والعَسَلَ ، ورَقَصُوا مِنْ غُرُوبِ الشمسِ إلَى مَطْلَعِ الفَجْرِ من غيرِ تَعَبٍ أو إعْياءٍ .

وما كادت تلمس قدماها ماء الينبوع حتى عادتا كما كانتا .

ورافقَهُمُ العُصْفُورُ الطَّيِّبُ حتَّى بابِ قَصْرِ الأميرةِ . وهُناكَ تَبَدَّلَتِ الأتْراحُ أفْراحًا بشِفاءِ قَدَمَيِ الأميرةِ . وخَلَعَ المَلِكُ عَلَى « قَدَمِ المَلاكِ » المِنَحَ والعَطايا الثَّمِينَةَ . ولما عَلِمَ بحِكايَتِهِ الغريبةِ ، وما كانَ من أمْرِ مَمْلَكَةِ الضِّخامِ ، تبَنَّاهُ وأصْبَحَ وارِثًا للعَرْشِ . ولَمَّا كَبِرَ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ الأميرةَ زَهرةَ .

وكانَا يَذْهَبانِ من حينٍ إلَى حينٍ لزِيارَةِ صَدِيقِهما العُصْفُورِ الطَّيِّبِ ، ويَشْرَبانِ لَبَنَ الأقْزامِ الذى يَمْنَعُ الغَمَّ والتَّعَبَ ، ويَجْلِبُ للنَّفْسِ المَرَحَ والسَّعادَةَ والهَناءَ .